السياق الثقافي في الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية

م. د. أحمد جاسم مسلم

الكلية التربوية المفتوحة/ مركز بابل

تسليم البحث :٢٠١٧/٢/٢٦ قبول النشر : ٢٠١٧/٥/١٨

الخلاصة:

إن دراسة السياق الثقافي للرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية يكشف لنا بصورة واضحة المؤامرات ضد الإسلام وضدّ قياداته وماولة إبعاده عن مركز القرار، وهذا ما حصل في الواقع، ومُني المسلمون بخسائر فادحة نتيجة تنحية مفاهيم الإسلام عن الواجهة، وتكشف هذه الرسائل عن وقوف أهل البيت عليهم السلام في وجه هذه المؤامرات ومحاولة كشفها للمسلمين حتى يكونوا على معرفة بهذه المؤامرات ومن يقف ورائها.

اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد تحدثت فيه عن السياق الثقافي وأهميته في كشف المضمر داخل النصوص، من ثمّ تحدثت عن نوع الخطاب بوصفه جنساً نثرياً وجد على وفق متطلبات البيئة السياسية بعد ظهور الإسلام وهو الرسائل السياسية.

ثمّ أخيراً تناولت المضمر الثقافي في الرسائل المتبادلة، وحاولت أنّ أكشف عن المعنى المراد من هذه الرسائل على وفق معطى السياق الثقافي.

بعد ذلك ذكرت أبرز النتائج التي أثمر عنها البحث، ثمّ قائمة بالمصادر التي اعتمدتها في بحثي هذا.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

إنّ الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية تنتمي لما يسمّى بالرسائل السياسية، وهي تؤرخ لمرحلة مهمّة من تأريخنا الإسلامي بعدها انتقلت القيادة الإسلامية من مرحلة الخلافة إلى مرحلة الحكم الوراثي، وهذه الرسائل شاهدة على الصراع القائم آنذاك بين المسلمين

حول الحكم وأحقيته بعد أن أدار أكثر المسلمين وجوههم عمّن هم أحقّ بخلافة المسلمين وهم أهل البيت عليهم السلام.

ودراسة السياق الثقافي لهذه الرسائل يبيّن لنا بصورة واضحة ما جرى في ذلك الوقت من مؤامرات لانتهاك الإسلام وابعاد قياداته عن مركز القرار، وهذا ما حصل في الواقع، ومُني المسلمون بخسائر فادحة نتيجة تنحية مفاهيم الإسلام عن الواجهة، وهذه الرسائل تثبت أيضا وقوف أهل البيت عليهم السلام في وجه هذه المؤامرات ومحاولة كشفها للمسلمين حتى يكونوا على معرفة بهذه المؤامرات ومن يقف ورائها.

واشتمل البحث على مقدمة وتمهيد تحدثت فيه عن السياق الثقافي وأهميته في كشف المضمر داخل النصوص، من ثمّ تحدثت عن نوع الخطاب بوصفه جنساً نثرياً وجد على وفق متطلبات البيئة السياسية بعد ظهور الإسلام وهو الرسائل السياسية.

ثمّ أخيراً تناولت المضمر الثقافي في الرسائل المتبادلة، وحاولت أنّ أكشف عن المعنى المراد من هذه الرسائل على وفق معطى السياق الثقافي.

بعد ذلك ذكرت أبرز النتائج التي أثمر عنها البحث، ثمّ قائمة بالمصادر التي اعتمدتها في بحثي هذا.

والله وليّ التوفيق

تمهيد:

لكل نص أدبي أو تأريخي سياقته الخاصّة، وهذه السياقات أسهمت في انتاج النص، وفي الوقت نفسه تكون هذه السياقات دالّة على النص وعلى ظروف انتاجه وطريقا للوصول إلى محمولات النص ودلالاته المختلفة، فلا يمكن أن يوجد نصّ منفلت غير مرتبط بظروف انتاج معيّنة، لا بدّ أن تكون هناك دوافع معيّنة دفعت منتج النص إلى انتاجه على وفق البيئة التي فرضته، ومن السياقات المهمّة التي من خلالها يمكن للمتلقي أن يدخل إلى بؤرة النص والاحاطة بمستوى تشكّله هو السياق الثقافي المرتبط بالثقافة وتحولاتها عبر الازمان.

على وفق هذا، يُعدّ النصّ ظاهرة ثقافيّة، إذ من خلاله يمكن أن نستخرج بعض الخلاصات التي تهمّ البنية الاجتماعيّة الثقافيّة، كما يمكن أن نستخلص منها المحادثات المستعملة في مقامات خاصّة ودور أعضاء المجتمع وحقوقهم وواجباتهم...إلخ[1]. وقد وجدت فكرة الثقافة كسياق للغة على نحو مكتمل عند سابير و وولف، إن كان سابير لم يستخدم حرفيّاً مصطلح السياق الثقافي إلاّ إنّه قدّم اللغة على أنّها تعبير عن الحياة العقلية لمستخدميها، ومن هنا شرع هو و وولف في تطوير وجهة

نظرهما الناشطة حول التفاعل المتبادل بين اللغة والثقافة، وهو ما يسمّى بـــ (فرضية سابير- وولف)[٢].

لقد وجدت النظرية السياقية استجابة وتقبلاً من لدن علماء في فروع الثقافة المهمة، والتي تعدّ المعنى جزءاً من موضوعها[٣]، وهذا عائد إلى أنّ النصوص اللغوية محتفظة بمرجعياتها الثقافية المختلفة، ولا يمكن للنص أن يحتفظ بأسراره طويلاً، فهو أمام القراءة الفاحصة يبوح بمحمولاته ودلالاته على تنوّعها.

فاللغة مظهر من مظاهر البيئة والنصوص ممثّله لها، فالثقافة بمعناها الواسع سمة من سمات كلّ نص، ولا يمكن أن تكون النصوص محيادة في نقل الثقافة لأنّها تشترك في انتاجها أعلم منشيء النص أم لم يعلم، لذا تكون الدراسات التي تعتمد على الثقافة في قراءة النصوص اللغوية مهمّة جداً، فهي تظهر ما أُضمر وما يمكن أن يكون خفيّاً عن السطح ليكون واضحاً مقروءاً.

والرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية تعدّ وثائقَ لغويةً مهمّة، بالإضافة إلى أنّها وثائق تأريخية، يمكن قراءتها ثقافياً للكشف عن محمولاتها بتجرد تام على وفق البيئة التي أنتجتها، وهي بيئة مضطربة جداً تمثّل عيّنة مهمّة من تأريخنا الإسلامي وما جرت فيه من أحداث صُودرت من خلالها الكثير من الحقوق.

أولاً: نوع الخطاب:

إنّ للخطاب أثراً مهمّاً في التواصل، ولا يكون ذلك إلاّ بعد أن تتيسّر عملية فهم الخطاب وفهم آلياته ومعرفة الجنس الكتابي الذي ينتمي إليه، وهذه الآليات هي التي حددت طبيعة لغة الخطاب، فالصفة البراغماتية لها هيمنة على كلّ الخطابات تقريباً وعلى وفقها تتحدّد جملة من الاستخدامات الأسلوبية والبلاغية من أمرٍ ونهي وزجر ودعاء...إلخ، والخطاب يمتلك وعياً مستقلّاً وتاريخاً نوعياً يمكن للمتلقّي أن يصل منهما إلى حقيقته، كما أشار إلى ذلك ميشيل فوكو في قوله: ((إنّ الخطاب لا يكون له معنى أو حقيقة فقط بل هو أيضاً ذو تأريخ، وتأريخ نوعي، يجعله لا يخضع لمعايير أو قوانيين مصير غريب عنه))[٤].

والرسالة بوصفها خطاباً ونوعاً من أنواع النثر العربي تعدّ وثيقةً أدبية وتأريخية مهمّة، فهي من أنواع الخطاب الخاضع للوصف والتحليل، والسياق الذي أنتجها له هيمنته على معجم الرسالة، وهو نفسه- أي السياق- سيكون المُوجّه لفهم نص الرسالة وبيان دلالاتها وظروف انتاجها.

والنوع وظهوره له ارتباط وثيق بالغرض أو القصد، فبعد ظهور الإسلام كانت هناك حاجة حقيقية للرسائل، وكانت الدعوة للإسلام تتمّ عن طريق الرسائل التي كان يبعثها النبيّ محمد صلّى الله

عليه وآله إلى ملوك العالم المجاور، فـ ((الكتابة الرسميّة الفنيّة عند العرب لم تأتها من الخارج فقد نشأت في حجورهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلهم المختلفة))[٥].

ووجود الآخر أمر أساسي في بناء الرسالة، لأنّ نص الرسالة مع الرد يمثّل حواراً عاماً، فالطبيعة الحوارية من مميزات الرسائل، وهو حوار غير مرئي تتمثّل صعوبته في أنّ الكاتب يحاول أن يضع في اعتباره وجوداً للحالة الشعورية والذهنية للقاريء اعتماداً على التشابه الاجتماعي والنفسي بينهما[٦].

ورسائل الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية تنتمي إلى ما يسمّى بالرسائل السياسية، وهي وثائق تأريخية مهمّة تؤرّخ لما كان يحصل حقيقة من الصراع الإسلامي الأموي، فالإمام الحسن عليه السلام هو الخليفة بعد أبيه الإمام علي عليه السلام، وقد بايعه المسلمون على ذلك في الكوفة، ومعاوية كان والياً على الشام بالقوة، وقد أشعل الفتن الكثيرة من أجل البقاء في مكانه، ومعركة صفين التي خاضها ضد الخليفة الإمام علي عليه السلام تكشف عن أطماعه ورغباته.

فالخطاب إذن، هو الرسائل السياسية بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، يمثّل الصراع ويكشف عن دوافعه، فمن خلال دراسة سياقات الخطاب التأريخية والثقافية يمكن الوصول إلى تحديد المستوى العقلي والمعرفي للمسلمين في تلك الحقبة من تأريخهم.

ثانياً: سياق المضمر الثقافي في الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية.

خطاب الرسائل موجود بالفعل وهي نصوص لغوية شاهدة على صراع مرير بين قوّتين أحدهما شرعية والأخرى غير شرعية، وهي خاضعة للدراسة والتفكير كأي نصٍّ تأريخيّ آخر، وقد سعى رايموند وليامز لوضع النصوص والمناقشات في سياقات أكبر هي السياقات الثقافية، وإنّ النقد التأريخي بوجه عام يجب ألّا يتوقف عند الكشف عن أوجه الخلل وسوء الفهم، بل أن يتجاوزه إلى تصحيح ما ينقده بالممارسة العملية، أي بما يشبه العمل الثوري[٧]، وهذا ناتج عن اتساع مفهوم الثقافة، فليونيل تريلنج يرى أنّها ((كلّ نشاطات المجتمع، من أكثرها ضرورية إلى أكثرها عفوية وفق النظر إليها في تماسكها الكلّي المشهود أو المفترض))[٨].

فالثقافة وسيلة فعّالة لأنّها الأكثر من غيرها قدرة على تثبيت التصورات والقيم والرؤى، وترسيخ المرجعيات الفكرية التي تصدر عنها المواقف[٩]، لذا فدراسة اللغة من أجل الوصول إلى قيم الثقافة السائدة من خلال المتون التأريخية له أهميته، فاللغة مرتبطة بالاستخدام كما هو موضّح في الدراسات الأسلوبية ودراسات علم اللغة الاجتماعي، وإبراز ميل الكاتب لأسلوب على آخر وللفظة على أخرى على وفق سياق الحال وما يناسب المتلقي ليكون واضحاً في التعبير عن مقاصده كما

أشار إلى ذلك فان دايك في قوله: وإذا كانت البدائل يجمعها كلّها جانب دلالي مشترك فإنّ كلا منها يقترن لدى الكاتب والقاريء بمعانٍ افتراضية خاصة أو عرفية في السياق الإتصالي والكاتب لديه إذاً القصد لوفاء منطوقه بهذه الوظيفة بصورة مناسبة، ولأن تكون السمات الأسلوبية الخاصة تعبيراً واضحاً عن مقاصده[١٠].

فاللغة هي المعبرة عن المقاصد وعن سياق الثقافة المضمر فيها، فمن خلالها يمكن الكشف عن سمات كلّ مرحلة وعاداتها وتقاليدها وما جرى فيها من أحداث وبيان الأسباب الحقيقية التي تقف وراءها ، والرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية كانت واضحة في أسلوبها ومقاصدها، وهي تسلّط الضوء مباشرة على أحداث تلك المرحلة من التأريخ الإسلامي الذي اشتدّ فيه الصراع حول السلطة.

تشبّث معاوية بالملك وادّعى الخلافة بعد بيعة المسلمين للإمام الحسن عليه السلام كخليفة للمسلمين، وبعث الإمام الحسن عليه السلام برسالة قصيرة بعد أن دسّ معاوية جواسيسه في الكوفة والبصرة، وبعد أن راسل الزعماء والوجوه والشخصيات يدعوهم للوقوف معه ضد الإمام الحسن عليه السلام، وقد منّاهم بالمناصب والأموال الكثيرة مقابل ذلك، وهذا نص الرسالة:

((أما بعد : فانك دسست إلي الرجال ، كأنك تحب اللقاء ، لا شك في ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وبلغني أنك شمتّ بما لم يشمت به ذو الحجى [١] وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فانا ومن قد مات منا لكالذي يروح فيمسي في المبيت ليغتدي

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تجهز لأخرى مثلها فكأن قد))[١١]

والرسالة على قصرها إلا إنّها بليغة في إيراد المقصود منها، وهما أمران:

الأول: التصميم على الحرب والاستعداد لها من قبل الإمام الحسن عليه السلام إنّ أصرّ معاوية على نهجه في الأثم والعدوان.

الثاني: الإنكار على معاوية لما أظهره من مظاهر الفرح والسرور بمقتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومن المعاني الجزئية الأخرى التي من الممكن الوصول إليها من خلال سياق الرسالة ما يستفاد من التشبيه في قول الإمام الحسن عليه السلام (كأنّك تحبّ اللقاء)، فإنّه يظهر دلالة السخرية من معاوية، كأنّ الإمام يقول له (أنت تكره اللقاء)، وهو استصغار لشأن معاوية لما عرف عنه من جبن وعدم إقدام وثبات في ساحة المعركة، فكان خطاب الإمام عليه السلام له فيه تقريع شديد، لأن معاوية يعرف جيدا هذه الحقيقة عن نفسه، وإنما ما جعله في هذه المكانة هو الكذب والمكر

والخداع، وإن أطماعه الدنيوية ظاهرة للعيان وعدم إقدامه في الحرب وجبنه تشهد عليه ساحات القتال، فهو لم يشاهد مبارزا قط.

أمّا الجملة الخبرية (فتوقعه إن شاء الله)، فهي تؤكد شجاعة الإمام الحسن عليه السلام وعدم خوفه من اللقاء كما كان يظنّ معاوية، وهو مستعدٌ لمناجزته والزحف نحوه، وهو ردٌّ سيقلق معاوية ويربك مخطّطاته التي سعى لها بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام.

وهاتان الجملتان صدمتا معاوية المتربص، وأوصلتا القصد من أنّ الإمام عليه السلام هو بمنزلة الإمام علي عليه السلام، وأنّ العزم هو نفسه، وأنّ الحرب قائمة لم تضع أوزارها باستشهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام ما دام معاوية باقيا على ضلاله. لذا جاء الشقّ الثاني من الرسالة مكمّلاً لمقاصدها، إذ إنّ معاوية توقّع النصر والإثرة بخلامة المسلمين بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، لذلك أظهر الفرح والسرور، فكان الردّ حازماً من قبل الإمام الحسن عليه السلام، ووضعه موضع السفيه الذي شمت بما لا يشمت به العقلاء، واستشهد الإمام عليه السلام ببيتين من الشعر العربي ليخبره أنّ فعله قبيح وقد تعارف على ذلك العرب حتى ورد في أشعارهم، وكان هذا أوقع في نفس معاوية وفي أسماع العرب لأنّ الشعر ديوانهم ومحلّ فخرهم وسجالاتهم.

تكشف ألفاظ هذه الرسالة على قصرها عن سياق ثقافي مهيمن متمثّلاً بالصراع الإسلامي الجاهلي، وهذا الصراع كان نتيجة حتمية بعد ظهور الإسلام، إذ إنّ العقل العربي صعب عليه أن يتغلب على مركزية البداوة وتقاليدها الراسخة فيه، لذا فهو دائما يحاول أن ينتج سلطة تقدّس ذاته بما هي عليه دون أن يلتفت إلى قيم الإنسانية التي جاء بها الإسلام.

وقد ردّ معاوية على رسالة الإمام عليه السلام بالرسالة الآتية:

((أما بعد : فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما حدث ، فلم أفرح ، ولم أحزن ، ولم أشمت ، ولم آس وإن عليا أباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

فأنت الجواد وأنت الذي إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعنة يوم اللقا يضرب منها النساء النحورا
وما مزبد من خليج البحا ر يعلو الاكام ويعلو الجسورا
بأجود منه بما عنده فيعطي الالوف ويعطي البدورا))[١٢]

إنّ هذا الجواب القصير أراد منه معاوية بما انطوت عليه نفسه من خداع وكذب أن ينكر اعلانه الفرح عند سماعه باستشهاد الإمام علي عليه السلام، وأيضاً أخبر أنّه لم يحزن وإنّما أراد أن يقول أنّه تلقّى الخبر دون أن يعني له ذلك شيئاً وكأنّ الإمام علي عليه السلام إنسان عادي ورحيله

ليس له أهميّة تذكر، وهذا الجواب بالتأكيد يكشف عن تخبط معاويه وارتباكه من التهديد الذي أرسله له الإمام الحسن عليه السلام، وهو واضح من مقدمة الرسالة التي قال فيها: (فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه)، أي فهم التهديد الذي وجّهه الإمام عليه السلام، وأراد أن يدفع التهم عنه، وهذا يدلّ على فزعه وخوفه من شدّة عزم الإمام عليه السلام وإصراره على مواصلة الطريق التي سلكها أبوه علي عليه السلام بمقارعته حتى يرجع الحقّ إلى أهله. وختم رسالته بأبيات من الشعر العربي في الكرم والشجاعة، وهو اعتراف صريح من معاويه بشجاعة الإمام الحسن عليه السلام وكرمه، وهو نوع من محاولة استمالة الإمام عليه السلام لمّا رأى منه العزم على محاربته.

بعد ذلك بعث الإمام الحسن عليه السلام رسالة إلى معاوية بيد شخصين من ثقاته، هذا نصّها:

((من عبد الله الحسن أمير المؤمنين ، الى معاوية بن أبي سفيان.

أمّا بعد : فان الله بعث محمدا (ص) رحمة للعالمين فأظهر به الحق ، وقمع به الشرك ، وأعزّ به العرب عامة ، وشرّف به قريشا خاصة، فقال : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)[١٣]، فلما توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعد ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه فعرفت العرب لقريش ذلك وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ما انصفتنا قريش ، وقد كانوا ذوي فضيلة في الدين ، وسابقة في الإسلام ، ولا غرو إلا منازعتك إيانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله معروفه أن لا يؤتينا في هذه الدنيا شيئا ينقصنا عنده في الآخرة.

إن عليا لما توفّاه الله ولّاني المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية وانظر لأمة محمد (ص) ما تحقن به دماءها وتصلح به أمرها، والسلام))[١٤].

في هذه الرسالة عرض الإمام عليه السلام الأسباب الحقيقية التي كانت منشأً للحروب الطاحنة بين المسلمين، وأصل هذه الأسباب هو تنازع العرب على خلافة المسلمين بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله دون أن يلتفتوا إلى وصيته في تعيين الخليفة من بعده.

والغريب أنّ قريش لمّا حاججت العرب بأنّها قبيلة الرسول صلّى الله عليه وآله وانتزعت الخلافة منها أنكرت على أهل بيت الرسول صلّى الله عيه وآله ذلك، ولم تصغِ إلى الحجة نفسها عندما حاججها أهل البيت عليهم السلام، ويبرز ذلك من قوله عليه السلام: (وجاهدتنا قريش ما عرفت لها العرب)، وقد ساق الإمام عليه السلام حجة عقلية احتجّت بها قريش على غيرها دون أن يذكر النصوص الصريحة الواردة عن الرسول صلّى الله عليه وآله في من هم الخلفاء من بعده، وأعتقد أنّ سبب عزوفه عن الآحتجاج بالروايات لعلمه أنّ معاوية لا يؤمن إلى الآن بنبوّة النبي

محمد صلّى الله عليه وآله، وقد جرى أيضا التعتيم على هذه الأحاديث وتكذيبها ممّا لا يكون له أثر على أصحاب معاوية، لذا عمد الإمام عليه السلام إلى إيراد الحجة العقلية للمطالبة بحقّه بخلافة المسلمين. فضلاً عن ذلك فإنّ المسلمين قد أجمعوا على مبايعة الإمام عليه السلام، فهو الخليفة الشرعي بحكم بيعة عامة المسلمين له في الكوفة.

قصد الإمام عليه السلام من خلال هذه الرسالة أن يكشف عن السبب الحقيقي من وراء تناحر المسلمين فيما بينهم، ممّا جعل معاوية المعادي للإسلام يجرأ على المطالبة بخلافة المسلمين، وكان ذلك واضحاً من قوله عليه السلام: (بغير حقٍّ في الدنيا معروف ولا أثرٌ في الإسلام محمود)، هذه الجملة تخفي كثيراً من الدلالات، فالإمام عليه السلام كان معاصراً لمعاوية وخاض ضدّه مع أبيه عليه السلام حرب صفين، وهو مطّلعٌ على حيله ومكره ودسائسه للإسلام ودسائس أبيه أبي سفيان، وفي هذه الجملة أيضاً انتزع الإمام عليه السلام من معاوية كلّ حقّ يؤهله أن يكون خليفة للمسلمين، بمعنى أنّه لم يكن من أطايب قريش ولا من ساداتها وكرامها ولا من شجعانها وأبطالها، ولا من أهل السيرة الحسنة والأرومة الطيبة، لذا أخرجه الإمام عليه السلام من الحديث العام الذي كان يشير فيه إلى قريش.

إن فهم خطاب الرسالة ذو أهمية لأنّه يؤدّي إلى تنظيم المعلومات الواردة فيه وفهمها في محيطها الثقافي الذي أنتجها، وقد نظّم الإمام عليه السلام معلومات الرسالة لتكون أكثر وقعاً على نفس معاوية بحيث لا يدع حجّة تسمح له بالاستمرار في ادّعائه الخلافة إلا إعلان الحرب وسفك دماء المسلمين.

لذا بعد أن انتزع الإمام عليه السلام من معاوية كلّ الصفات الدنيوية التي من الممكن أن تؤهله للخلافة طعنه بفساد إسلامه في قوله: (ولا أثرٌ في الإسلام محمود)، فمعاوية لم يكن له أي أثر محمود في الإسلام، على العكس من ذلك، كان وأبوه من أشدّ أعداء الإسلام ولم يتوقّفوا عن محاربته ساعة حتى أذعنوا بالقوة والإكراه.

في خطاب الرسالة الكثير من العناصر الدلالية الخارج نصيّة التي تحيل إلى مضامين النص المضمرة وتكشف عن الصراع وأسبابه، وعن مستوى الوعي للمجتمع الإسلامي في تلك الفترة.

لذا وجّه الإمام عليه السلام في ختام الرسالة دعوة لمعاوية ليحقن دماء المسلمين ويذعن للإصلاح بعد أن بايع المسلمون الإمام الحسن عليه السلام خليفة لهم.

نصّ هذه الرسالة كان دقيقاً جداً ومنسّقاً، وهو وثيقة تأريخية مهمّة، إذ من خلاله يستطيع الباحث أن يصل إلى الحقيقة إذا كان متجرّداً، وأن يكشف عن عمق الإنقسام الثقافي في المجتمع الإسلامي أنذاك، فالإسلام كان صريحاً في طرح أحكامه وفي كلّ ما يتعلّق بنظام الدولة الإسلامية،

وهذا الصراع الخطير التي أنتجته البيئة التي ظهر فيها الإسلام كان بسبب ادعاء أعداء الإسلام للإسلام ظاهراً بعد أن أدركوا العجز في القضاء عليه، ثمّ بدأوا يعملون من داخل الإسلام ليحكموا المسلمين ويشفوا قلوبهم منهم، وهذا واضح من عجب الإمام عليه السلام من طمع معاوية بالخلافة دون أن تكون له ميزة دنيوية أو فضيلة إسلامية تؤهّله لذلك.

وكان جواب معاوية على رسالة الإمام الحسن عليه السلام ماكراً مخادعاً، وخطابه ملتوياً، وهذه صورته:

((أما بعد : فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله (ص) وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرّحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر وأبي عبيدة الأمين وصالحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك، إن الأمّة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولّوا من قريش أعلمها بالله وأخشاها له وأقواها على الأمر فاختاروا أبا بكر ولم يألوا ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ، ما عدلوا بالأمر الى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمّة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلمت لك الأمر بعد أبيك، فان أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوما فطالب الله بدمه ، ومن يطلبه الله فلن يفوته ، ثم ابتز الأمّة أمرها، وفرّق جماعتها فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم فى الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته فقاتلهم فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم ، ثم أقبل إلينا يدعي علينا بيعة ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب الى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تصلح عليه الأمّة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا ، وعليه مثله ، وعلينا مثله على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت وخلعاه فو الله ما رضى بالحكم ، ولا صبر لأمر الله ، فكيف تدعوني الى أمر إنما تطلبه بحق أبيك ، وقد خرج منه فانظر لنفسك ولدينك والسلام))[١٥].

خطاب الرسالة واضح ومضامينه والمراد منه أيضاً جليّةً لذوي العقول، فمعاوية استغلّ الانقسام الواضح في المجتمع الإسلامي، ليضع نفسه في قبال الإمام علي عليه السلام، وهو بالتأكيد لم يقصد الإمام الحسن عليه السلام في خطاب رسالته، فهو يعلم أنّ الإمام عليه السلام يعرفه حقّ المعرفة، إنّما كان ذكيّاً ذا دهاء ليحرك الأحقاد بين مختلف طبقات المسلمين.

فهو لم يستطع اتهمام النبي محمد صلّى الله عليه وآله ولو كان له سبيلاً إلى ذلك لفعل، وإنّما اتهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنّه ضدّ رغبة المسلمين وقريش في تولّي الخلافة بعد أن توفّى الله الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله.

فهدّد في إيقاظ الفتنة التي سكت عنها الإمام عليه السلام من أجل مصلحة الإسلام، ومن ثمّ أعلن أنّه الأحقّ بالخلافة من الإمام الحسن عليه السلام كما كان من مضى أحقّ بالخلافة من الإمام علي عليه السلام، أراد من ذلك تثوير الفتنة للاستفادة منها في تثبيت ملكه، وبيّن أنّ هذا هو رأي المسلمين وقريش خاصّة، واستغلّ غيبة الوعي الجمعي عند المسلمين وشرود ذهنهم عن أهميّة أن يتولّى أمورهم من اختاره الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليه وآله.

والأنكى أن يقول معاوية (فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمّة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلمت لك الأمر بعد أبيك، فان أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوما فطالب الله بدمه)، وواضح مراد معاوية من هذا القول، إنّه يريد أن يقنع من حوله أنّه أصلح للخلافة من الإمام الحسن عليه السلام، وأنّه أعلم كيف تدار شؤون المسلمين، وهو نوع من الإيهام، لأنه يعلم من هو الإمام الحسن عليه السلام، والإمام يعلم أيضا ما هو كنه معاوية، فالكلام جاء على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة)، فالخطاب- كما هو الظاهر- كان موجّهاً للإمام الحسن عليه السلام، إلا إنّه في الحقيقة كان مقصوداً به من هم حول الإمام عليه السلام من المسلمين ومن هم حوله من أتباعه، ودوافعه كانت كثيرة، منها: إنّه أراد أن يقلّل ثقة الناس بالإمام عليه السلام ومن ثمّ يستطيع استمالة القلوب نحوه، وأيضاً أراد أن يظهر للناس بعد أن قارن نفسه بالإمام أنّه أكيس وأقدر على قيادة المسلمين وإحكام أمرهم.

وقد سخر الشيخ باقر شريف القرشي من خطابه هذا في قوله: ((نعم تجلّت حيطته عل الإسلام وحسن سياسته حينما تمّ له الأمر، فإنّه أخذ يتتبع صالحاء المسلمين وأبرارهم فيمعن في قتلهم ومطاردتهم وزجّهم في السجون، ومن حيطته على الإسلام استلحاقه لزياد بن أبيه، وسبّه لأمير المؤمنين على المنابر وفي قنوت الصلاة، ونصبه ليزيد حاكماً على المسلمين وأمثال هذه الموبقات والجرائم التي سوّدت وجه التأريخ))[١٦].

ثم بدهاء ومكر معاوية انتقل بالخطاب إلى الإمام علي عليه السلام، واتهمه بدم عثمان، وهذا الخطاب أراد منه إرسال معنى إلى الإمام عليه السلام بإنّه على استعداد تام لإشعال نار الفتنة التي أشعلها في زمن الإمام علي عليه السلام حينما طالب بدم عثمان، وأيضاً أراد إيصال معنى إلى الناس جميعاً أنّ الإمام الحسن عليه السلام هو ابن قاتل الخليفة عثمان، ومن يكون بهذه الصفة فلا يحقّ له أن يكون خليفة للمسلمين، وهو بهذا أراد أن ينفضّ المسلمون عن الإمام عليه السلام بإشاعة هذه الأكاذيب وهذه التهم التي أنهكت الأمة وأقلقت استقرارها.

لقد فهم الإمام عليه السلام خطاب معاوية جيداً، وأدرك ما يضمره من مكائد للإسلام والمسلمين، وكلّ هذا يلوح من بين الأسطر، ومقاصده لا تخفى فهو مصرٌّ على التمسّك بالخلافة وإن أدّى ذلك

إلى نشوب الحرب بين المسلمين، فإيقاد الفتنة من جديد سهلٌ عليه وهي لم تبرد نارها بعد، ومعاوية لا يهتمّ لدماء المسلمين إنّما كان همّه الخلافة مهما يكون الثمن.

وأرسل معاوية بعد ذلك رسالة إلى الإمام عليه السلام يعده فيها بالخلافة من بعده إن هو تنازل له في الوقت الراهن عنها، وهي استراتيجية جديدة اتبعها معاوية ظنّاً منه أنّ همّ الإمام عليه السلام هو الخلافة مثلما هو يمنّي نفسه بذلك، وهذا نصّها:

((أما بعد : فان الله يفعل في عباده ما يشاء لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع من الناس وأيس من أن تجد فينا غميزة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه ، وبايعتني وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة :

وإن أحد أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان في المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدي ، فأنت أولى الناس بها والسلام))[١٧].

لقد كان همّ معاوية الحكم والخلافة مهما كان الثمن، وعندما استشهد الإمام علي عليه السلام انفرجت أساريره وشعر أنّ الأمر أصبح منالاً، لكن بعد بيعة المسلمين للإمام الحسن عليه السلام انقلب حاله ورجفت أمانيه، وهذه الرسالة القصيرة التي بعثها للإمام تكشف عن حاله.

ابتدأ معاويه الرسالة كأنّه من الموقنين بحكم الله الراضين بقضائه، وهو نوع من التمويه يقصد به عامة المسلمين لا الإمام عليه السلام، فالإمام أعلم بما عليه معاويه من جحود، ثمّ حذّر الإمام عليه السلام أن يكون ضحية على أيدي رعاع الناس، وهذا الخطاب التحذيري أراد من خلاله معاويه أن يخبر الإمام عليه السلام من أنّه اشترى الناس لتكون معه وهو إعلام بإضعاف جبهته الداخلية واختراقها من قبل معاوية، وبعد أن اتصل بزعماء جيش الإمام وأغراهم بالمناصب والأموال واطمئنّ أنّهم سوف ينفذون مخطّطاته، والغريب إنّ معاويه كان يؤدي دور الخليفة المثالي في رسائله وكأنّه هو المختار من قبل الله كما في قوله: (وأيس من أن تجد فينا غميزة)، والحقيقة أنّك مهما بحثت في سيرته فلن تجد له فضلا.

ثمّ بعد هذا التهديد والوعيد عرض للغرض الرئيس من رسالته، وهو مبايعة الإمام عليه السلام بالخلافة له، ثمّ من بعد ذلك تكون للإمام عليه السلام، واستشهد بأبيات من الشعر العربي على وفائه بالوعد.

إن ثقافة معاويه الجاهلية أرته أنّ الإمام عليه السلام كان يرغب بالخلافة لنفسه، وأنّ الصراع بينهما من أجل رئاسة الناس، بينما الإمام عليه السلام كان حريصاً من أجل ارجاع المسلمين إلى جادة الصواب بعد أن عصفت بهم الفتن وابتعدوا عن الإسلام ولا يهمّه أمر الخلافة وتشريفاتها الدنيوية.

لذا كان جواب الإمام عليه السلام حاسماً وفيه إصرار على الحرب ومناجزة الباطل، دون أن يناقش ما ورد من معانٍ مخادعة في رسالة معاوية، وهذا نصّ جواب الإمام عليه السلام:

((أما بعد : فقد وصل إليّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، وتركت جوابك خشية البغي عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أني من أهله ، وعليّ أثم أن أقول فأكذب والسلام))[١٨].

لم يرد الإمام عليه السلام أن يطيل الحديث في جوابه لمعاوية، وهو أعرف به من نفسه، وإنما طلب منه اتباع الحقّ والإنصياع للإمام عليه السلام، وأخبره ما في داخله من أنّه يعلم أنّ الحقّ مع الإمام عليه السلام، لكنه يداجل نفسه من أجل أطماعه في خلافة المسلمين ولا حقّ له في ذلك.

تكشف الرسائل المتبادلة بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية عن صراع ثقافي تجذّر مباشرة بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله، صراع بين قيم الإسلام وقيم الجاهليّة، فالإمام عليه السلام يمثّل قيم الحياة الإسلامية الجديدة ومعاوية يمثّل قيم الجاهلية، ((وكان من طبيعة "ردّ الفعل" في النفوس التي شبّت مع العنعنات القبلية جاهليةً وإسلاماً، والتي قبلت الإسلام مرغمةً يوم الفتح، ثمّ لن تهضم الإسلام- كما يريده الإسلام- أن تكون دائماً عند ذحولها من الضغائن الموروثة، والتراث القديمة العميقة الجروح))[١٩].

فتحليل هذه الرسائل ودراسة سياقها الثقافي بعيدا عن الميول يظهر الأزمة الكبيرة التي كان يعاني منها الإسلام نتيجة تسلّط معاوية ومن كان على شاكلته على رقاب المسلمين ومقدّرات الدولة الإسلامية، وقد أنتج هذا التسلّط ممارسات لا إسلامية شوّهت التأريخ الإسلامي، ولسنا بصدد ذكرها أو الإشارة لها، وهي نتيجة حتميّة لتنحية أهل الحقّ عن حقّهم جوراً ظلماً، وقد لمّح الإمام الحسن عليه السلام في رسالته الأخيرة إلى ذلك.

نتائج البحث:

- النصوص وثائق مهمّة، وخاصة النصوص التأريخية، إذ من خلال دراسة سياقتها الثقافية يمكن الوصول إلى الظواهر الثقافية للبيئة التي أنتجت النص.
- الرسائل السياسية وهي نوع الخطاب المعني بالدراسة في هذا البحث، نوع نثري أظهرته الحاجة بعد ظهور الإسلام، ولم يكن معروفاً في الفترة التي سبقت الإسلام.

- كشفت الرسائل عن الأزمة الشديدة التي كان يعاني منها المسلمون في تلك الفترة، على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي، وقد استغلّ معاوية ذلك لينفذ بأطماعه من أجل الحصول على السلطة.
- كشفت هذه الرسائل عن مستوى الفكر المهيمن في تلك الفترة وعن مستوى ثقافة الافراد والثقافة الجمعية التي كانت سائدة، ومدى استفادة العربي المسلم من النظرية الإسلامية على مستوى الفعل لا القول، وهي شاهدة على درجة الوعي المجتمعي الذي عانى منه الأئمة طيلة دعوتهم إلى الإسلام.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- الإمام الحسن عليه السلام، باقر شريف القرشي، دار المعارف، مؤسسة الإمام الحسين عليه السلام، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، دار احياء التراث العربي، بيروت- لبنان، (د- ت).
- الثقافة والمجتمع، رايموند وليامز، ت: وجيه سمعان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩.
- حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ت: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٨٦م.
- حوار الثقافة والقيم والمجتمعات التقليدية، عبد الله إبراهيم، مجلة ثقافاتنا للدراسات والبحوث، المجلد ٥ ، العدد السابع عشر، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني، ضبطه وصححه محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٢م.
- صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت-لبنان، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، فان دايك، ت: سعيد بحيري.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥، (د.ت).
- اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة: عباس الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٧.
- النص بنياته ووظائفه، مدخل أولي إلى علم النص، من نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق – الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- النقد الادبي الأمريكي من الثلاثينات الى الثمانينات، فنسنت ليتش، ت: محمد يحيى، مراجعة وتقديم، ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م.

الهوامش

١ – ينظر: النص بنياته ووظائفه، مدخل أولي إلى علم النص، من نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق – الدار البيضاء، ١٩٩٧م: ٧٦-٧٧.

٢ – ينظر: نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري، د. حسام أحمد فرج، مكتبة الآداب– القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م: ٣٠.

٣ – ينظر: اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز: ٢١٨.

٤ – حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ت: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط١، ١٩٨٦م:١٢٢.

٥ – الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥، (د.ت):١١١.

٦ – ينظر: نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري: ٣٣.

٧ – ينظر: الثقافة والمجتمع، رايموند وليامز، ت: وجيه سمعان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩: ١٨.

٨ – النقد الادبي الأمريكي من الثلاثينات الى الثمانينات، فنسنت ليتش، ت: محمد يحيى، مراجعة وتقديم، ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م: ١٠٤.

٩ – حوار الثقافة والقيم والمجتمعات التقليدية، عبد الله إبراهيم، مجلة ثقافاتنا للدراسات والبحوث، المجلد ٥ ، العدد السابع عشر، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م: ١٢٥

١٠ – ينظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، فان دايك، ت: سعيد بحيري ١٦٢-١٦٥.

١١ – شرح نهج البلاغة: ١٩/١٦. وينظر: بحار الأنوار: ٤٤/ ٤٣-٤٤.

١٢ – شرح نهج البلاغة: ١٩/١٦.

١٣ – سورة الزخرف، الآية/ ٤٤.

١٤ – شرح نهج البلاغة:١٦/ ١٤-١٥.

١٥ – شرح نهج البلاغة: ١٦ /١٥.

١٦ – الإمام الحسن عليه السلام، باقر شريف القرشي: ٦٢/٢.

١٧ – شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٢. وينظر: بحار الأنوار: ٥٥/٤٤.

١٨ – شرح نهج البلاغة: ٢٢/١٦.

١٩ – صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت–لبنان، ١٤٣١هـ– ٢٠١٠م: ٢٠٤.

The letters exchanged between Imam Al-Hassan (ealayh alslam) and Muawiya

Dr. Ahmed Jasim Muslim

Abstract:

The study of the cultural context for letter exchanged between Imam Al-Hassan (ealayh alslam) and Muawiya clearly reveals to us the plots against Islam and its leaders and the try to dimension the Islam from its centre of decision, and this actually happened, so the Muslims had been great losses as a result to exclude the concepts of Islam from the façade, also these letters reveal that 'ahl albayt (ealayhim alssalam) stood up against these plots and try to show them for Muslims in order to know these plots and who stop behind.

The research included introduction and preface that talked about the importance of cultural context in implicit revealed inside the texts, and then talked about the type of speech as a prose sort which found according to requirements of political environment politic after the advent of Islam and it is the political letters.

Finally, the researcher took the cultural implicit in the exchanged letters and try to reveal the exact meaning form these letters according to a given cultural context.

After that, the researcher mentioned the highlights results that the research yielded, and then a list of references which depended in this research.